٩ رمضان: أول غارة إسرائيلية
١٠ رمضان: رد الاعتبار المصرى

أحيانا .. تقع فى الحياة أحداث تجمع قدرا من المصادفات والتوافق والتقابل، أكبر مما تحتمله قدرة العقل البشرى . ورغم أن الإنسان يؤمن بالله .. خالقا لكل شىء ، وعالما بكل شىء ، وصاحب التصرف فى كل شىء ، فإن غروره – الإنسان – يجعله يبحث عن تسميات وعبرات بشرية لظواهر إلهية . ولأن عقله الباطن يريد أن يغطى عجز عقله الظاهر – ويريحه نفسيا فى ذات الوقت – فإنه يقنعه بالاكتفاء بتسمية هذه الأحداث : « تصاريف القدر الغريبة » . ومن هذا النوع من الأحداث : بدء إسرائيل لصراعها الطويل مع العرب من خلال مصر .. وبدء مصر لحسم هذا الصراع ورد اعتبار العرب أمام إسرائيل .

إبراهيم صالح

فى الساعة التاسعة مساء يوم الجمعة التاسع من رمضان ، الموافق منتصف مايو عام ١٩٤٨ ، كان فى شارع جامع عابدين (باب باريز سابقا) الذى يظل عليه الباب الخلفى لقصر عابدين – قصر الملك السابق فاروق – كان هناك سرادق عزاء فى وفاة أحد كبار رجال القانون فى مصر فى ذلك الوقت . وبينما كان صوت المقرىء يرفع بآيات الله البينات ، طغى عليه وقاطعه فجأة صوت انقضاض طائرتين ، تلاه دوى انفجار قنابل سقطت على بعد امتار من القصر والسرادق . حتى إن شظاياها تناثرت حولها . ثم صوت صفارات الإنذار . وأطلقت الأنوار .. وساد سكون الذهول ! ! .

فى تلك اللحظة .. انتهى مظهر من مظاهر الحزن الخاص ، ليبدأ مظاهر الحزن العام على مستوى مصر كلها والعالم العربى .. وليبدأ مأساة شعب فلسطين .

كانت تلك أول غارة إسرائيلية على العمق المصرى . بعد أن أعلنت مصر والدول العربية الحرب على إسرائيل بمجرد إعلان قيامها على أرض شعب فلسطين .

□ □ □

ومضى الزمن . وتحول الأيام – التى قيل إنها كافية لإنهاء وضع إسرائيل على أرض فلسطين – إلى أسابيع .. وشهور .. وسنوات طويلة ! !

□ □ □

فى الساعة الثانية وخمس دقائق بعد ظهر يوم السبت العاشر من رمضان ، الموافق السادس من أكتوبر عام ١٩٧٣ ، والموافق – فى نفس الوقت – العيد الدينى اليهودى يوم « كيبور » أو الغفران . كانت كل القوات الإسرائيلية فى خط « بارليف » المنيع – ! ! – على قناة السويس ، فى حالة استرخاء تام تحتمه طقوس ذلك العيد الدينى . وبينما كان صوت بعض المتعبدين الإسرائيليين يتسلم بنايل من التوراة ، طغى عليه وقاطعه فجأة صوت الرعد المنبعث من أمواج الطائرات المصرية وهى تعبر قناة السويس وخط بارليف ، تلاه وابل عنيف أحدثته آلاف الأطنان من القنابل المصرية المنسقطة فوق كل الأهداف الإسرائيلية فى سيناء المصرية .

ولم يسعف الوقت إسرائيل لإطلاق صفارات الإنذار . ولا استطاعت أن تطفىء نورا . فإن التوقيت كان يعنى أن العالم الإسلامى كله كان يصيبه نور الله .

وساد الذهول على الجانب الإسرائيلى . ولكن .. لم يسد سكون من يومها . فقد توالت موجات التصريين مع صيحة « الله أكبر » . وامتدت الحركة والتغيرات إلى العالم كله .. حتى اليوم ! ! .

فى تلك اللحظة .. بدأت تنحسر مظاهر الحزن العام على مستوى مصر والعالم العربى ، ليبدأ مظاهر حزن خاص بإسرائيل .. وحدها ! !

وكان ذلك بدء رد الاعتبار العربى – من خلال مصر أيضا – أمام إسرائيل .

□ □ □

الحدثان متواليان زمنيا . ولكن .. الفصل بينهما فى الزمن – كما بعد .. نحن البشر – خمسة وعشرون عاما .. وأربعة أشهر .. وتسعة عشر يوما .. وست عشرة ساعة .. وخمس وخمسون دقيقة . هذا لحساب البشر . ولكنها ربما كانت فى حساب الله ، عز وجل ، بعض يوم . أو حتى طرفة عين . فإن يوما عند الله كألف سنة مما نعد .. نحن البشر . ولم يكن الله سبحانه وتعالى ، تاركا عدوانا على المسلمين ومقدساتهم دون رد سريع .. بحسابه هو . أما بقاء هذا العدوان أكثر من ربع قرن بحساب البشر . فربما أراد الله أن نتعلم شيئا . ولم يتعلم أحد . لا العرب . ولا إسرائيل ! !

□ □ □

فالعرب لم يتعلموا أن « اللاءات » والشعارات التى أطلقوا بها حناجرهم – وحناجرهم فقط ! ! – أكثر من ربع قرن ، لا تستطيع وحدها أن تفعل شيئا سوى إراقة الدم المصرى – والمصرى فقط ! ! – فوق كل أرض عربية ! !

ويبدو أنهم مازالوا لا يفهمون . ولهذا فهم لا يفهمون خطوات الرئيس السادات التى يكمل بها ما بدأه يوم العاشر من رمضان ! ! .

□ □ □

وإسرائيل أيضا لم تتعلم . لا مما فعلته هى بنا ولا مما فعلناه نحن بها .

فعندما عبرت إسرائيل العمق المصرى فى أكثر مواقعه حساسية – بقرار الحكم فى ذلك الوقت – كان يفصله عنها كل شرق وادى النيل ، وقناة السويس ، ومئات الكيلومترات فى سيناء ومعظم فلسطين .

وعندما عبرناها نحن وشللنا حركتها . كانت – هكذا تصورت – تختفى وراء قناة السويس . القوى مانع مائى طبيعى كما قالت المراكز الإستراتيجية الدولية . وخط « بارليف » . أقوى مانع صناعى كما قالت هى للعالم كله . ومئات الكيلومترات فى سيناء المصرية وباقى الأرض المحتلة .

فالأرض .. بمساحاتها الشاسعة ، وموانعها الطبيعية والصناعية ، لم تعق إسرائيل عن الوصول إلى العمق المصرى . ولا عاقت مصر عن الوصول إلى العمق الإسرائيلى . لم تكن الأرض – بدون – أمنا ولا أمانا لمصر . ولا لإسرائيل ! ! .

ولكن إسرائيل لم تتعلم . ومازالت . ونحن نقدم لها الأرض والأمان بالسلام . مازالت . بالتفاصيل . فى أشبار . تحرر أشبار وقراريط من الأرض . تحمل الأمن والأمان . تشربها حرية أطلاعها وأحلامها ! !

□ □ □

ومازال الزمن يمضى . قد يطول قليلا بحساب البشر . ولا يعلم مقداره الأخير إلا الخالق عز وجل . والله لا بد منه ورده ولو كره الكافرون .. والمنافقون .